

المعرفة في القرآن الكريم

د. عبد الله صباح ناصر الملا^(*)

• مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلي آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن الدراسات القرآنية عديدة لا تنتهي، وكل منها في باب له نفع، إلا أن دراسة المعرفة ومنهج القرآن فيها له نفع ظاهر إذا ما قارناها بالدراسات الأخرى، إذ إن عصب الفكر البشري يكمن في بحث المعرفة، إذ هي تأسيس للبحث عن المعرفة البشرية، وكيفية التوصل إلى الجانب الآخر من الوجود، وهو الوجود الغيبي.

والفكر المعاصر - أعني الفلسفي - يبحث هذه المناحي، وأحياناً يجدف فيها ويتخبط كل التخبط.

وأعتقد أن في القرآن الكريم المنهج الأتم، فلماذا ونحن المسلمون المؤمنون، أصحاب الدعوة إلى هذا الدين، أقول لماذا لا يستخرج من بواطن أسرار الآيات وكوامن العلم الديني ما نقف به في مواجهة المد الفكري السلبي؟، لماذا لا نؤسس علماً على أسس دينية صحيحة؟

وفي هذا الموضوع أدرس المنهج القرآني في المعرفة، وكيف اهتم القرآن الكريم وناقش وقسم وجزأ في المعرفة بصورة تطبيقية؟ حيث يضرب

(*) المدرس المنتدب بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم التفسير والحديث -

جامعة الكويت.

الأمثال، ويوجه الأنظار، ويستحث الأبصار للتأمل والبحث والمعرفة. انظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿وَقَى أَنْفُسَكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١) ففيه دعوة للمعرفة، وتحريك للإنسان نحو ذاته، ليكشف الحق، وليتوصل إليه بالنظر، والبصر، والسمع، واللمس، وكل حواسه، وكل مشاعره.

لذا استعنت بالله - تعالى - لأكتب في هذا الموضوع وهو «المنهج القرآني في المعرفة» وقد قسّمته أربعة مباحث بعد المقدمة ثم الخاتمة وقائمة المراجع.

* المبحث الأول: «مدخل للمعرفة ومفهومها»، وفيه أتحدث عن مفهوم المعرفة، ودراسة الاتجاهات القائلة بأن المعرفة كسبية، والقائلة بأن المعرفة فطرية، وترجيح الصواب، ثم كيف قرر القرآن الكريم أن المعرفة كسبية؟ ومتى تبدأ؟، وكذلك بيان الصواب في المعرفة السابقة للأرواح، وجاء ذلك في مطلبين.

* المبحث الثاني: «حدود المعرفة»، وأجيب فيه عن تساؤل هام، وهو هل للمعرفة الإنسانية بالوسائل البشرية حدود؟ ربما كان الأصل في تضارب الفكر الإنساني أنه أطلق العنان لعقله وحواسه فيما لا يمكن للحواس والعقل أن يصلوا إليه، فما وسع الحواس أن تسع عالم الغيب إذا كانت عجزت عن وسع عالم الشهادة، وفي الروح الدليل، ثم العقل محصور في المعطيات الحسية، فما للعقل إلا ما حدد في هذا الإطار.

(١) سورة الذاريات، الآية ٢١.

لذا أدرس حدود المعرفة الإنسانية، وأنواعها، والحد الذي يقف عنده العقل، مع محاولاته اليائسة في تخطي الحدود، وعدم إمكانية تخطيها، وجاء ذلك في ثلاثة مطالب.

* المبحث الثالث: «هل المعرفة ممكنة؟»، يشك البعض من المفكرين القدماء والمعاصرين في إمكان المعرفة، فينكر البعض إمكان تحصيلها، وبالتالي إنكار كل الحقائق المشتركة الموصلة للتفاهم. لذا أدرس هذا الموضوع من منطلق القرآن الكريم، إذ يدرس إمكان المعرفة، ونماذج تؤكد توجه القرآن الكريم في إمكان المعرفة، مع ذكر أدلة وتقاريرات عن هذا الإمكان، وجاء ذلك في مطلبين.

* المبحث الرابع: «أنواع المعرفة في القرآن الكريم»، وهي تنقسم حسب انقسام الوجود والوجود ينقسم إلى حسي وعقلي، فأذكر هنا كيف بيّن القرآن هذه الأقسام ودلل عليها، وذكر براهينها، ثم أذكر المعرفة التي تخرج عن الكسب الحسي والعقلي، وهي الإلهامية، وجاء ذلك في ثلاثة مطالب.

* الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات والفهرست.

والله أسأل التوفيق والعون والسداد

• المبحث الأول: مدخل للمعرفة ومفهومها:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم المعرفة:

تحدث القرآن الكريم عن المعرفة وطرقها ووسائلها، ولقد تنبه لذلك علماء التفسير وأرباب اللغة، ونبهوا على مقاصد القرآن الكريم في أشياء عدة من وسائل المعرفة، وأهمية ترتيبها، وتقديم بعضها على البعض.

وقد عرفها الإمام الرازي^(١) في تفسيره «مفاتيح الغيب» بأنها الاعتقاد الجازم سواء كان تقليدًا أو عن دليل، والبعض يرى أنها الناشئ عن دليل فقط، لتصحح الاتصاف بالمعرفة^(٢).

وقصر المعرفة على ما نشأ عن دليل لأنه ينبني عليها اعتقاد ويقين، ولا يكون ذلك إلا عن دليل إذ هو المرشد، ويترتب على العلم به العلم بشيء آخر بصورة لا تقبل الشك أو الرد^(٣).

وقد تحدث القرآن عن المعرفة ونظمها وأحاط بمناهجها - إنه المنهج

(١) الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسين أبو الفضل فخر الدين الرازي الإمام المفسر، وُلد سنة ٥٤٤ هـ الموافق ١١٥٠ م، وتوفي سنة ٦٠٦ هـ الموافق ١٢١٠ م، وهو أوحّد زمانه في المعقول والمنقول، وعلو الأوائل، وهو قرشي النسب، أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له: (ابن خطيب الري)، رحل إلى خوارزم، وما وراء النهر، وخراسان، وتوفي في هراة، وكان يُحسن الفارسية، أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها، من تصانيفه: مفاتيح الغيب، ومعالم أصول الدين، ولوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات، وغيرها الكثير (الأعلام للزركلي ٢٠٣/٧، الطبعة الثانية).

(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازي، ١/١٦٧، ط المطبعة الخيرية، الأولى، القاهرة، ١٣٠٧ هـ.

(٣) التعريفات للجرجاني، ٩٣، ط الحلبي بالقاهرة، ١٩٣٨ م.

الإلهي سبحانه - فتأمل قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) فقد أقر أن الإنسان يُولد على غير علم، ويحصل بهذه الآلات ما يزل عنه الجهل، فقوله تعالى: «لا تعلمون شيئاً» حال، معناه غير عالمين شيئاً، ثم ركب فيكم هذه الآلات التي وُلدت بها لجلب العلم والترقي إلى ما يسعدكم، فقد جعل هذه الأدوات وسائل إدراك، جعل السمع للسمع، والإبصار للرؤية، والأفئدة للوصول بها إلى المعرفة، فجمع هنا بين وسائل المعرفة الحسية والعقلية لأن فيهما معاً تمام المعرفة (٢).

كما أن القرآن الكريم اهتم دائماً بـ «تتفكرون» (٣) و«تعلمون» (٤)، ويتساءل «أفلا تعقلون» (٥) و«أفلا تتذكرون» (٦)، وهكذا من سبل المعرفة والحض على تحصيلها، حتى الشعور الشامل لمعارف الحس والعقل أشار إليه في قوله: ﴿فَبَصَّرْتَهُمْ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٧) فيما يخص الشعور الحسي، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٨) للشعور العقلي.

(١) سورة النحل، الآية ٧٨.

(٢) الكشف للزمخشري ٥٩٦/٢، ط مكتبة مصر، الأولى.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢١٧.

(٤) سورة البقرة، من الآية ٢٢.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٤٤.

(٦) سورة الأنعام، من الآية ٨٠.

(٧) سورة القصص، من الآية ١١.

(٨) سورة البقرة، من الآية ١٥٤، وتفسير الرازي ٢٨٢/١.

المطلب الثاني: المعرفة بين الفطرة والكسبية:

قديمًا كانوا يعتقدون أن الإنسان خلق بنفس عارفة لكل شيء، وذلك حسب معتقداتهم في التناسخ، أي أن النفس بعد الموت إن كانت شديدة العصيان ترد إلى جسد آخر، أو إلى تكوين جديد، هذا الجسد الآخر قد يكون لحيوان أو إنسان، فإن كان الإنسان استفاد بالمعارف التي سبق أن أدركتها النفس مع الجسد السابق.

وهذا كان معتقد الكثير من مفكري اليونان أو بعض مفكري المسلمين كالفارابي^(١)، ابن سينا^(٢)، وعند النصاري، وحديثًا عند ديكارت^(٣) الذي يقول بفطرية المعرفة^(٤).

(١) الفارابي: شيخ الفلسفة الحكيم أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان التركي الفارابي المنطقي، أحد الأركيلاء، له تصانيف مشهورة، سار إلى مصر، وسكن دمشق، من مصنفاته: مقالة في إثبات الكيمياء، وسائر تواليقه في الرياض والإلهي، مات بدمشق في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة عن نحو من ثمانين سنة، وصلى عليه الملك سيف الدولة بن حمدان (السير للذهبي ٤١٦/١٥-٤١٨ ط مؤسسة الرسالة- الثانية ١٤٠٤/١٩٨٤م- بيروت ت: شعيب الأرناؤوط).

(٢) ابن سينا: العلامة الشهير الفيلسوف، أبو علي الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، وُلد في صفر سنة سبعين وثلاث مئة، ومات في رمضان سنة ثمان وعشرين وأربع مئة (السير ٥٣١/١٧).

(٣) ديكارت: رينيه ديكارت ١٦٥٠-٥٩٦ فيلسوف فرنسي، اعتمد المنهج العقلي لإثبات الوجود عامة ووجود الله على وجه أخص، وذلك من مقدمة واحدة عُدت من الناحية العقلية غير قابلة للشك «أنا أفكر فأنا إذن موجود» وهو من أنصار المذهب الإنساني ولكنه يؤمن بوجود الله تعالى (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/١٤٩، المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الناشر: دار الندوة العالمية، وإشراف: د. مانع بن حماد الجهني).

(٤) انظر تفصيل ما سبق في: المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية لأولف جيجن ص ٢٤٥ ط كلية الآداب- عين شمس، ترجمة د. عزت قرني. وطريق الفيلسوف جان فال ٢٢٩، ٤٣٧ الناشر: مؤسسة سجل العرب، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، مراجعة: د. أبو العلا عفيفي.

وقد بان خلو هذا الكلام من المضمون العلمي الحق، فهو أوهام لا أكثر^(١).

وقد صحح القرآن الكريم هذا المعتقد الوهمي، فذكر وحدوية النفس لكل جسد، قال تعالى: ﴿وَحَمَّاتٌ كُلُّ نَفْسٍ﴾^(٢)، وأقر الدين رحلة الروح بعد الموت بمفردها دون العودة في جسد.

ثم صحح المفهوم في المعرفة، وقرر أنها كسبية لا فطرية، ولم تدركها الروح من قبل، أن كانت في جسد آخر - كما زعموا أو قبل نزولها للجسد كما فهم بعضهم، إذ الثابت الصحيح أن الروح تُخلق، والجسد يُخلق في الرحم، ولم يثبت أنها من قبل ذلك كانت في جسد آخر، حتى تكون عارفة بالمعارف. فالله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾^(٣). فيعود الإنسان من عالم الأرحام إلى عالم الحياة الدنيا بوسائل وأدوات، يحصل بها معارفه وعلومه.

إذ وقت خروجه طفلاً - رضيعاً - ما كان يعي ما يسعده أو يشقيه، وما كان يدرك ما ينفعه أو يضره، وما كان له علم بما أخذ عليه من ميثاق في الأزل. ثم وهبه الله تعالى الأدوات التي بها يدرك يتدبر ويصل إلى المعرفة^(٤).

(١) فكر هيجل لروحيه جارودي ٤٢، ٦٣ ط دار المعرفة - بيروت، الثانية، ترجمة:

إلياس مرقص. والثقافة والمعرفة البشرية لميشيل توما سيللو ٢٩ ط عالم المعرفة

٢٠٠٨ م.

(٢) سورة ق، من الآية ٢١.

(٣) سورة النحل، من الآية ٧٨.

(٤) تفسير القرطبي ١٨٦/٦ ط دار القلم - الأولى.

ولذا إذا كبر الإنسان يعود إلى ما كان عليه، لا يعلم شيئاً بعد أن علم^(١)، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾^(٢). ويغيب عنه العقل الواعي، ولا يعود ليذكر شيئاً، أو يسلك مسالك العالمين، تخور ذاكرته، ويخلط، ويثبت ويمحو على غير تقدير، عافانا الله من البلاء بعافية العطاء ودوام النعم - آمين.

إذا نخلص إلى أن الإنسان يحصل معارفه، ولم يُخلق عارفاً عالماً فالباري وهبه الحواس ليستفيد بها المعارف^(٣).

وما يفعله الرضيع بالتقام الثدي لا يعني المعرفة، وإنما يعني الغريزة، إذ يفعل ذلك سواء من الحيوانات، ولا يقال له علم.

ولعل البعض يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾^(٤).

يستشهد بها على سبق المعرفة، وسبق خلق الروح في عالم الذر، ونقول: المعنى هنا: أن الله - تعالى - دلهم بخلقه على توحيده، لأن من بلغ التكليف، وأحاط الرشد بعقله، أدرك لا محالة أن له خالقاً أبدعه وأحسن صنعه.

وقال القرطبي في قوله «ألسنت بربكم» أي قام ذلك - الخلق - مقام الأشهاد عليهم، والإقرار منهم، كما قال تعالى في شأن السماوات والأرض ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٥).

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٢٨١/٦ ط مكتبة الغزالي - دمشق - بيروت.

(٢) سورة الحج، من الآية ٥.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي ٣٣٦/٥.

(٤) سورة الأعراف، من الآية ١٧٢.

(٥) سورة فصلت، من الآية ١١.

وذكر الزمخشري: أن هذا كثير في القرآن ولسان العرب، وهو من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك: أنه تعالى أقام لهم الأدلة على ربوبيته وحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي وهبها لهم لتمييز بين الحق والباطل، فكانهم أشهدهم على أنفسهم وقرّره^(١).

وقد ذكر القرطبي^(٢) رأياً يقول: «وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وإنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها»، وهي رواية ضعيفة رويت بصيغة التمريض، ولم ينسبها القرطبي ولم يعول عليها إذ قال قبلها قيل.

وعليه فلا يصح لدينا إلا أن المعارف يحصلها الإنسان بمولده، وربما وهو في الأرحام، لأن النفخ يكون بعد الأربعين الثالثة، وعندها تعمل الأعضاء - بصورة ما - يصح أن تحصل معرفة وإن خفت إلا أنها معرفة أولية بسيطة، والثابت علمياً حصول ذلك أن الأجنة في الأرحام تحصل نوعاً من المعارف، وتتأثر بالأصوات وشدة الأضواء، وتصدر ردود فعل تدل على ذلك.

• المبحث الثاني: حدود المعرفة:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الممكن من المعرفة:

دعوة القرآن الكريم للإنسان بالتأمل في المدركات الحسية، والدلائل الممكن استنباطها منها، يوضح أن المعرفة تبدأ وتنتهي في إطار

(١) الكشف ٢/٢١٩. والقرطبي ٤/٦٧٢.

(٢) القرطبي ٤/٦٧٢.

المحسوسات، والمعقول المستتبط من الحس. هذا بالنسبة للطاقة الإنسانية وحدودها.

يقول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (١).

فقد حرك حواسهم وعقولهم إلى المعرفة الكونية، ليحصلوا منها الدليل العقلي على وحدانية الباري سبحانه، وأنهم تركوا الصواب عندما خالفوا ما يعلمون، وجعلوا لله أنداداً.

فهذا توجيه للبصر والبصيرة للمعرفة والبحث اللازم نهجه، والممكن للعقل البشري.

المطلب الثاني: الاستدلال بالمعرفة الحسية والعقلية:

ويستدل عليهم بالأدلة التي لا ينكرها العقل دلالة على أن وسعهم وطاقتهم التحصيل العقلي، فضلاً عن الحسي، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٥٠﴾﴾ (٢).

كيف ذلك وقد أخرجكم من العدم إلى الوجود، والحجة بيّنة تحرك العقل وتسحقته، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٢٥١﴾﴾ (٣).

ولهذا يقر العقل حتماً بضرورة الخالق، فكما هو بين أنكم لم تكونا

(١) سورة البقرة، الآيتان ٢١-٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨.

(٣) سورة الطور، الآية ٣٥.

فكنتم، وبعد أن كنتم ستزولون، كذا يبين أن لكل ذلك خالقاً، لأن وجود المخلوق يجحد إنكار الخالق.

فتأمل هذا التوجيه للمعرفة الاستدلالية، ومن قبل حركهم من إدراك الحس للوصول ليقين عقلي، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۖ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ﴾^(١) وسيلتان من وسائل المعرفة الحسية، وصول هذه المحصلات والمعطيات إلى استفادة عقلية فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ ۚ﴾^(٢) نظر تدبر واعتبار ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بهذه الحالة الداعية للتفكر، بقوتها وحملها للأثقال وطواعيتها للإنسان، ألا يدل ذلك الخلق العظيم - الذي ينقاد للقوي والضعيف - على خالق مبدع.

ثم تدرج بهم من المعرفة التي بين أيديهم إلى ما فوقهم وتحتم فقال تعالى: ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۚ﴾ لا تميل ولا تزول إلى أجل مسمى. ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۚ﴾^(٣) سطحا بتمهيد وتوطئة^(٤).

حد يقف عنده العقل:

كل ذلك يدل على أن حدود المعرفة، أو المعرفة الممكنة للإنسان هي المحسوسات، والمعقولات التي بإمكانه، ويحصلها من مدركاته الحسية، أي

(١) سورة البلد، الآيتان ٨، ٩.

(٢) سورة الغاشية، من الآية ١٧.

(٣) سورة الغاشية، الآيات ١٨-٢٠.

(٤) تفسير الكشاف ٥٨٤/٤.

أن المعرفة الممكنة هي الظاهرة، أو الدالة على صفات الشيء ودلالاته، لا حقيقته الخفية أو كنهه، قال تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (١).

فهنا لا مجال للحس أو العقل في خوض غمار المعرفة الخاصة بكنهه هذا الأمر، أيضاً ينبغي على العقل أن يعرف أنه آلة محصورة في حدها، ولا وسع في التكهّن بمكنون هذا السر.

ولذا أجاب الحق سبحانه ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) حتى يقف العقل عاجزاً - والعجز نوع من الإدراك - عن معرفة ما هو محاط بمحيط، ومحصور في حاصر، فمن باب أولى يدرك أن ما خرج عن هذا المحيط - مما هو لا يعرف إلا بوصفه وأثره لا بكنهه وتصوره - لا وسع له في إدراكه.

إنها تربية للعقل، فإنها تحير في إدراك مكنون الروح، وقف عن البحث في كنه الذات العلية سبحانه.

محاولات تغطي العُدود:

ولقد حاول أهل الضلالة قديماً وحديثاً، خوض هذا الغمار إنكاراً، فردهم الحق سبحانه، ويسألونك أي: يا محمد «عن الروح» أي: عن حقيقتها؟ فقل لهم: إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، وقل لهم ليس من وسع مداركم ولا طاقتها الإحاطة بهذه اللطائف.

كما أن حد العقل - والمعرفة - أن يقف فيما وراء ذلك عند ما أوقفه العليم الخبير، مثل مصير الروح، وكيف تعذب.

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ٨٥.

لقد جاء اليهود للنبي ق يسألونه عن ذلك - أي الروح - كما رواه ابن جرير ^(١) في تفسيره قال: حدثنا محمد بن سعد ^(٢) قال: ثنا أبي ^(٣)، قال: ثنا عمي ^(٤) عن أبيه ^(٥) عن جده ^(٦) عن ابن عباس قوله: «ويسألونك عن الروح»

(١) ابن جرير: محمد بن جرير الإمام المجتهد أبو جعفر الطبري، مولده سنة أربع وعشرين ومائتين، قال الذهبي: كان ثقة صادقاً حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه، توفي سنة عشر وثلاث مائة (السير ٢٦٧/١٤ - ٢٨٢).

(٢) محمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطية، قال الخطيب البغدادي: كان ليثاً في الحديث، مات سنة ست وسبعين ومائتين (تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٢٢/٥ ط دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. ميزان الاعتدال للذهبي ٥٦٠/٣ ط دار المعرفة - بيروت - لبنان، لسان الميزان لابن حجر ١٧٤/٥ ط مؤسسة الأعلمي الثانية بيروت ١٤٩٠هـ/١٩٧٠م).

(٣) أبوه: سعد بن محمد بن الحسن، قال الخطيب: قال أحمد: لا يُتَّبَع عنه جهمي ضعيف (تاريخ بغداد ١٢٦/٩ - ١٢٧، لسان الميزان ١٨/٣).

(٤) عمه: الحسين بن الحسن بن عطية، قال أبو حاتم: ضعيف الحديث، وقال ابن حبان: منكر الحديث يروي عن الأعمش وغيره أشياء لا يتابع عليها كأنه كان يقبلها وربما يرفع المراسيل، ولا يجوز الاحتجاج بخبره ضعيف (الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤٨/٣، ط دار الفكر، الأولى ١٣٧١هـ. المجروحون لابن حبان ٢٤٦/١ ط دار الوعي - حلب ١٣٩٦هـ. تاريخ بغداد ٢٩/٨. ميزان الاعتدال ٥٣١/١. لسان الميزان ٤٧٨/٢).

(٥) أبوه: الحسن بن عطية العوفي، قال أبو حاتم: ضعيف الحديث، وقال البخاري: ليس بذلك، وقال ابن حبان: ضعيف الحديث ومنكره. مات سنة إحدى وثمانين ومائة (تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٩٨/١ ط مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند - الأولى ١٣٢٥هـ. والتقريب ١٦٨/١ ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. تهذيب الكمال ٢٧٦/١ للمزي ط مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٥م، بشار معروف. التاريخ الكبير ٣٠١/٢ للبخاري ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان).

(٦) جده: عطية بن سعد بن جنادة العوفي، قال البخاري: قال لي علي بن يحيى: كان هشيم يتكلم فيه وقال مسلم: قال أحمد: هو ضعيف الحديث، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو زرعة: لين، توفي سنة إحدى عشرة ومئة (تهذيب الكمال ١٤٥/٢٠، والتهذيب ٢٢٥/٧).

الآية وذلك أن اليهود قالوا للنبي ق: أخبرنا ما الروح، وكيف تُعذب الروح في الجسد، وإنما الروح من الله لأ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحر^(١) إليهم شيئاً، فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال له: «قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» فأخبر النبي ق بذلك، فقالوا له: من جاءك بهذا؟ فقال لهم النبي ق: جاءني به جبريل من عند الله، فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدو لنا، فأنزل الله تبارك اسمه (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله^(٢))(٣).

ولم يسلم - اليهود وأهل الجدل - إلى هذا الحد، بل عارضوا في «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» قالوا: أتزعم أننا أوتينا القليل؟ قال ق: «هي في علم الله قليل - أي التوراة - وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم» وأنزل الله تعالى: «ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم»^(٤).

(١) جاء في تاج العروس: «فلم يُحر جواباً» أي: لم يرجع ولم يرد. مادة حور. ١٦٣/٣ نشر دار ليبيا - بنغازي ط الأولى - مصر ١٣٠٦ هـ.

(٢) الحكم على الحديث: الحديث في سنده ضعف، إلا أنه قد ثبت سؤال اليهود للنبي ق عن الروح بطرق صحيحة في صحيح البخاري كتاب التفسير باب «ويسألونك عن الروح» حديث رقم (٤٧٢١) انظر: فتح الباري ٢٥٣/٨ وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٧ ج ١٣٦ ب: سؤال اليهود النبي ق عن الروح وقوله تعالى: «ويسألونك عن الروح».

(٣) تفسير ابن جرير ٦٩/١٥ - ٧٠ ط دار الكتب ت: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م - السعودية.

(٤) سورة لقمان، الآية ٢٧. وانظر: تفسير جامع البيان لابن جرير ٨٥/١٥ وقال ابن حجر: حسن صحيح. فتح الباري ٢٥٦/٨ كتاب: التفسير، باب: «ويسألونك عن الروح».

المطلب الثالث: نماذج:

أوقفهم عند حدودهم الممكنة لعقولهم، «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» لم يهب الخلق إلا القليل، لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، ومسألة الروح مما استأثر به تعالى، وقد حار فيها أصحاب الفكر، ولن يصلوا، وأنى لهم الوصول إلى أمر مكنون، محجب بالجلالة، مستور بالمحالة.

إذاً هناك حدود للمعرفة لا يستطيع بعدها العقل إلا أن يقول خبط عشواء، وقد أسكتنا عند حدها الشرع، منها الروح، وكيفية أمرها في التنعيم أو التعذيب، لقد حررها الشرع، ويلزمنا الوقوف عند ذلك^(١).

كذا يقف حد المعرفة عند الذات الإلهية، فنبحث في الصفات، ونتأمل في الآثار والمعطيات، دون كنه الذات إذ لا يحيط به العقل ولا يمكن إدراكه، ولا يسأل عنه بكيف أو أين، أو ما يشابه ما أحاط بين الكيف الأين فمن كيف الكيف وأين الأين لا يقال له كيف ولا أين.

ولذا لما تطاول المتطاولون فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَا إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَدْرِكُهُ أَبْصَارٌ مُّشَاهِدَةٌ﴾^(٢) عياناً نراهم، ومقابلة ندرکهم ونلم بهم، عد ذلك جحوداً منهم، وتطاولاً وعناداً، لأن الله - تعالى - تعالى عن كل ذلك، وتقصد أن يتقدم أحد بين يديه، في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء.

(١) تفسير القرطبي ٣٤٤/٦-٣٤٦، وتفسير الكشاف ٣/٣٨، وتفسير ابن كثير ٣/٦٠-

٦١، ط مكتبة دار التراث الأولى. وصفوة التفاسير ٧/١٧٣ وتفسير الطبري

٨٥/١٥.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ٩٢.

فأوجب علينا أن ننزهه تعالى عن مثل ذلك ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾^(١)
سبحان ربي أن يعجز عن شيء أو يعترض عليه في فعل، سبحان ربي،
تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم^(٢).

وقد وصف الذين طلبوا رؤية الله تعالى حتى يؤمنوا، بالعتو والاستكبار،
فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾^(٣).

إنهم يخافون لقاء الله - تعالى - ويكرهون الخير لأنفسهم والناس.
وكرهت أكابر قريش أن يتقدمهم في الإسلام «عمار وصهيب وبلال»،
فاقتربوا الآيات التي يطلبونها ليؤمنوا: يريدون أن يروا الله جهرة، يخبرهم
بصدق محمد ق لقد استكبروا في أنفسهم، أضمرُوا الكبر عن الحق، والعتاد،
وجعلوا ذلك مكنوناً في صدورهم.

إن ما يفعله هؤلاء تجاوز للحد، بل إنهم لم يجسروا على هذا القول
العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار والعتو^(٤).

فلمعرفة حدود.. فإذا كان استتباط ما هو في الطبيعة المخلوقة من
أحداث يجري على فروض محتملة، فما بالك بخالق الطبيعة؟
وما بالك بما أكنه الله تعالى من أسرار اختصها بذاته تعالى.

(١) سورة الإسراء، الآية ٩٣.

(٢) تفسير القرطبي ٣٥٢/٦، وتفسير ابن كثير ٦٢/٣-٦٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٢١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣١٣/٣، وتفسير الكشاف ٣٢٣/٣-٣٢٤.

• البحث الثالث: هل المعرفة ممكنة؟

وفية مطلبان:

المطلب الأول: اهتمام القرآن بإمكان المعرفة:

ولقد اهتم القرآن بهذه المسألة، ووضع أسسها حتى لا تزيع فيها العقول، وحتى لا تتخبط فيها الآراء، فكان هادياً مصححاً للفترة التي انتكست، فوجهها للعقل حتى لا يتخلف ويتخاذل عن المسلك الحق.

فقرر إمكان المعرفة الحسية والعقلية ودعا إليها، وطالب إعمال الحس والعقل في الاستدلال. فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۚ﴾^(١).

وعدّد ما يظهر للحواس الخمس، وما يمكن من خلاله أن يصل العقل إلى استخلاص أمر واستنباط حكم يطمئن إليه ويقطع فيه بيقين لا شك فيه. وتعرض لمطلب المعرفة الباحثة عن الحق، والمعرفة الساعية وراء الجدل لا سواه، وبصورة أخرى ناقش البحث عن الحق، وناقش السفسطة، ورد على هذا وذلك، ليبين أن البحث عن الحقيقة لا مزية فيه، أما الصخب الفكري والعشوائية المعرفية فهي تصل إلى باطل، ومنه إلى إلف هذا النوع من المعارف.

نماذج تؤكد إمكان المعرفة:

تأمل قصة إبراهيم - عليه السلام - عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ۚ﴾^(٢) لم يكن شاكاً في قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى، وإنما

(١) سورة الغاشية، الآيات ١٧، ١٨ وما بعدهما.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٦٠.

طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، فطلب رؤية العين، رغم اطمئنان القلب، وطلب المزيد من اليقين، رغم حصول اليقين.

إنه طموح الباحث عن الحق، وليس طموحاً مرضياً لا يقر له قرار، ولا ينتهي إلى صواب، وهو شك لا فائدة منه تُرجى، إذ هو الشك المتردي دائماً، المتوقف دائماً بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وهذا منفي عن الخليل - عليه السلام -.

روى البخاري في صحيحه قال: حدثنا أحمد بن صالح، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة ط أن رسول الله ق قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: «رب أرني كيف تحيي الموتى. قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي»، ويرحم الله لو طأ لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١).

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٤٩/٨-٦٥، كتاب التفسير، باب: ٤٦ «وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى» ح(٤٥٣٧) ط المكتبة السلفية، الثالثة ١٤٠٧هـ والحديث في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى «ونبئهم عن ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه» ٤٧٣/٦ ح(٣٣٧٢) وهي الرواية التي معنا هنا. والحديث أطرافه ٣٣٧٥ / ٣٣٨٧ / ٤٥٣٧ / ٤٦٩٤ / ٦٩٩٢. ورواه الإمام مسلم في صحيحه بلفظه ٣٦٢/١ ب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة. انظر: شرح النووي على مسلم، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤١٧هـ/١٩٩٢م.

أي أنه لو كان شاكاً لكننا نحن أحق بالشك، ونحن لا نشك في إبراهيم - عليه السلام - أخرى ألا يشك^(١).

وذلك لأن الخليل - عليه السلام - قال: «ربي الذي يحيي ويميت» ثم سؤاله كان بـ«كيف»، وهي دالة على أن السائل يقر بوجود أمر ويريد معرفة حال من أحواله.

ثم لما سئل «أو لم تؤمن قال بلى»، وعلل السؤال «ولكن ليطمئن قلبي»، فلا يجوز أن يكون إنكاراً، إذ هو كفر، و«الأنبياء» أتم من هذه الوصمة، ثم لا سلطان للوسواس الخناس عليهم.

إذا قصد الخليل - عليه السلام - الاطمئنان فقط، ليزيد سكوناً وطمأنينة «بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك، بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك»^(٢). فإبراهيم لديه يقين بالضرورة، وأراد زيادته بيقين آخر، ألا وهو يقين الاستدلال، أراد انضمام يقين العقل إلى يقين الفطرة. فهذا يثبت السؤال المعرفي لا الإنكاري الجدلي، وكثيراً ما يذهب أهل الشك إلى الإشارة إلى قصة الخليل للتدليل على إنكار المعرفة المشتركة، وإنكار الحقائق المسلمة، ويقولون: إنه أنكر إمكان قدرة الله على ذلك، وهذا مناف لكل حق.

(١) تفسير القرطبي ٤٦٢/٢ - ٤٦٣.

(٢) تفسير الزمخشري ٢٧٥/١.

تأمل وهو يدعو أباه «آزر» إلى الحق، ماذا قال له؟ قال: ﴿يَتَأَبَّتْ إِيَّيْ قَدْ جَاءَ فِي مَرْ أَلِيمَ مَا لَمْ يَأْتِكْ فَأَتَيْتَنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^(١).

فإن الدعوة بوسيلة هي العلم، وأورد له أدلة عينية حسية على أن هذا الذي يعبد له أقل من إنسان، فمن باب أولى أن لا يكون إلهاً، فقال له: ﴿يَتَأَبَّتْ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(٢).

فكل دعوته يقين، ولا يمنع ذلك من أساليب البحث عن المعرفة، ولقد قص القرآن الكريم سبيلاً آخر في إثبات إبراهيم - عليه السلام - لأهله قضية الألوهية في قصة الكوكب قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَا زَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً.....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ.....﴾^(٣).

لقد استعمل طريق الاستدلال والنظر ليبين لهم الخطأ الذي هم به يؤمنون، وسلم لفهم بفكرتهم حتى لا يكون متعصباً ويرفضونه، أقر بقولهم (هذا ربي) فلما أفل أنكر أن يكون ذلك إلهاً، لكونه متغيراً، وانتقل بهم إلى أن الذي يتغير لا يكون هو مدبر ذاته، إنما له مدبر يغيره، وهذا أسلوب من أساليب محاجة الخصم، والوصول به للحق.

وانتهى آخر الأمر إلى قوله: «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض» أي للذي دلت هذه الكواكب والنجوم على أنها محدثها وخالقها، وأعلن استقرار الاستدلال على بطلان ما يذهبون إليه^(٤).

(١) سورة مريم، الآية ٤٣.

(٢) سورة مريم، الآية ٤٢.

(٣) سورة الأنعام، الآيات ٧٤-٨٣.

(٤) تفسير الكشاف ١٠٣/٢-١٠٥.

هذا الأسلوب لا ينفي إمكان المعرفة بل يؤكد بها بشقيها الحسي والعقلي. ويظهر من خلال ذلك أن القرآن الكريم أقر السؤال الموصل إلى اليقين، أو البحث المعرفي، أيضاً يجب إثبات أنه أنكر ورفض الشك المذهبي، الذي هو في حد ذاته وجهة ومعتقد. وأنكر الجدل الذي لا يقوم على يقين، وينتابه الاضطراب والتردد...

تأمل قول الله تعالى: ﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَفَالَوْإِ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٦) ثُمَّ تَكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ^(١).

وبعد أن جادلهم في أمر التماثيل التي يعبدونها، جادل أباه والنمرود وشيعتهم، ما هذه التماثيل التي تقيمون عليها وتعبدونها؟ ما كانت إجابتهم سوى الاتباع والتقليد للأسلاف، فأنكر عليهم ذلك، وأرشدهم أن آباءهم - وهم بالتبع - بعدوا كل البعد عن الحق لما عبدوا جمادات صنعوها بأيديهم.

هذه هي المحاجة الجدلية، وعمد إلى المحاجة الفعلية، فهدم أصنامهم عدا الصنم الأكبر، ووضع الفأس في عنقه، فلما انكشف الأمر، وذاع أن الذي فعل فتى يقال له إبراهيم، جاءوا به، أنت فعلت هذا بالهتاف؟.

العجيب أنهم يسألون ويصفون هذا الحطام بأنه آلهة، كأنهم استمروا الجهل الذي هم فيه.

فأجاب الخليل - عليه السلام -: بأن كبيرهم هو الذي فعل، غضب أن يُعبد هؤلاء الصغار من دونه فهدمهم، فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وهذا تعريض حالهم المزري، أي كيف ذلك، تعبدونهم وهم لا ينطقون!.

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٤-٦٥.

فبانت حجة إبراهيم للبعض، فانقلبوا على البعض الآخر يحاجونهم بحجة الخصم فقالوا: «إنكم أنتم الظالمون» إذ تعبدون من حاله هكذا، لا يزود عن نفسه ولا ينطق، «ثم نكسوا على رؤوسهم» من هنا يظهر الشك المذهبي، ثم الانتهاء للضلالة، والاطمئنان لما عهدوه وألفوه، لم يعملوا عقولهم فيما هم فيه ولا فيما أيديهم من برهان، تأرجحوا بين ما سبق وما هم فيه، إنه الشك، ثم عادوا لما كانوا عليه، وراحوا ينافحون عنه، يجادلون عنه بالباطل والمكابرة الزائفة، وحين أعيتهم الحيلة، أمروا بإحراقه، وكانت عاقبة هؤلاء الخسران والهلاك، لقد رد الله - تعالى - كيدهم، وأنكر أمرهم ^(١) يقول المولى لأ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ٦٨ ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٩ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم الْأَخْسَرِينَ﴾ ٧٠ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ^(٢).

ويظهر من خلال ما سبق أن القرآن الكريم أثبت إمكان تحصيل المعرفة، وأثبت سبلها، «الحس والعقل»، وعرض أساليب تحصيل المعرفة كالبحث والنظر، ورد الجدال المقيت الذي لا طائل وراءه، ورد التقليد الأعمى الذي لا يأتي بخير.

المطلب الثاني: أدلة وتقرير إمكان المعرفة:

المعرفة ممكنة، ولذا دعا الله - تعالى - نبيه محمدًا ق إلى المعرفة فقال: «اقرأ»، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ^(٣) من قبل، فكان العلم من البداية إلى النهاية دلالة تامة على إمكان المعرفة.

(١) الكشف ٣/١٩٣-١٩٧. والقرطبي ٧/٣٢-٣٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات ٦٨-٧١.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٣١.

وذكرت في القرآن الكريم، وهي ما نشأت عن دليل أحدث علمًا سبق
بجهل، وعرقها الشريف الجرجاني: بأنها إدراك الشيء على ما هو عليه،
وهي مسبوقة بجهل^(١).

والمعرفة تحدث اليقين في النفس، لأنها تكون عن دليل، ومنكرها جاحد،
يقول تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾^(٢)، ويقول: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا
وَأَسْتَقْنَتَهَا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٣).

فهنا معرفة نشأت عن دليل، ويقابلها الإنكار سواء بنسبة النعم إلى غير
الله- تعالى-، ونسبتها إلى غيره يصحبها إنكار الله تعالى ولرسوله، أو نسبتها
إلى الله- تعالى- مع إسناد علة ذلك لشفاعاة آلهتهم.

قال محمد بن السائب الكلبي: لما عرفهم رسول الله ق بهذه النعم
عرفوها وقالوا: نعم هي كلها نعم من الله، ولكنها بشفاعاة آلهتنا^(٤).

ويحتمل يعرفونها بقلوبهم، وينكرونها بألسنتهم، الغاية أنهم يعرفون
بالدليل الثابت، والإنكار هو المقابل للمعرفة.

ويولد الإنسان على الفطرة، ولديه الاستعداد للمعرفة، وإن كان يولد
بدون علم كما في الآية.

والفارق بين العلم والمعرفة، أن المعرفة ما حصلت عن دليل، أما العلم

(١) التعريفات، ص ١٩٧.

(٢) سورة النحل، من الآية ٨٣.

(٣) سورة النمل، من الآية ١٤.

(٤) القرطبي ١٩٦/٦.

فهو ما يشمل الضروري والمكتسب، واليقيني والظني^(١)، فالعلم أعم وأشمل من المعرفة.

• المبحث الرابع: أنواع المعرفة في القرآن الكريم:

وفيه ثلاثة مطالب

أنواع المعرفة «سبل المعرفة»:

قد تتنوع المعرفة بتنوع السبل والأسباب المؤدية إليها، أو بتنوع موضوعات المعرفة أصلاً.

فالوجود الحسي لا يمكن تحصيل معرفته إلا بالسبل الحسية، والوجود العقلي - وهو ما يستنبط من جملة المحسوسات - يمكن تحصيله بالعقل، وهناك معرفة لا تحصل بوسيلة تمكن كل البشر، إنما هي مما يتفضل الله سبحانه به على عباده، وهي علم النبوة، الله يصطفي من الناس من يحملهم هذه الأمانة ليبلغوها للناس، وليس لهم في ذلك يد.

بل إن ترتيبهم ورعايتهم والحفاظ عليهم، كل ذلك من فعل الحق سبحانه، كما يقول جل شأنه: ﴿وَلِيُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾^(٢)، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٣).
فعناية الله بظواهر وبواطن الرسل مما لا يخفى في الدين الإسلامي، خلافاً لما عليه أصحاب التحريف من أرباب الكتب التي قبلنا، إذ أجازوا في رسلهم، ما لا نجيزه ولا نقبله في أواسط الناس والذين يلونهم^(٤).

(١) التعريفات ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) سورة طه، من الآية ٣٩.

(٣) سورة طه، الآية ٤١.

(٤) ولكونه بعيداً عن موضوعنا فلن نفصل شيئاً فيه، ونرده إلى مظانه كإظهار الحق لرحمة الله الهندي، والجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية، والعهد القديم، والجديد، هذا وغيره يقول في الأنبياء كلاماً على لسان اليهود والنصارى، لا يتفق مع ضرورة تصديق المعرفة السماوية.

والمهم أن سبل المعرفة: الحس، والعقل، والنبوة. وهاك البيان:

المطلب الأول: المعرفة الحسية:

وهي التي تتكون بالحواس، بمعنى القوة الحساسة، بشرط سلامتها من الآفات المانعة من حصول الإحساس والتأثير بالمحسوس، وهي خمس.

بمعنى أن العاقل حاكم بالضرورة بوجودها. وأما الحواس الباطنة التي تثبتها الفلاسفة، فلا تتم دلائلها على الأصول الإسلامية كما قال الإمام النسفي وأقره على ذلك العلامة سعد الدين التفتازاني^(١).

وقد خلق الله - تعالى - كلاً من تلك الحواس لإدراك أشياء وأمور مخصوصة، كالسمع للأصوات، والذوق للمطعمات، والشم للروائح، لا يدرك بحاسة ما تدركه الأخرى.

وهذه حكمة الله تعالى وتقدره للأشياء، مع قدرته التامة - سبحانه - على صرف حاسة عن عملها إلى عمل آخر، والله سبحانه على كل شيء قدير.

وقد حدد الإمام أبو معين النسفي المعرفة الحسية بفارق بين عن المعرفة العقلية، فقال: «وما لا يدخل تحت الحس لا يصير معلوماً بالحس، بل يصير معلوماً بالعقل بواسطة الحس، فكان العلم الحاصل بالاجتماع والافتراق والسكون بالعقل بواسطة الحس»^(٢).

فدور الحس أن يحصل المفردات المحسوسة من الخارج، أي تحصيل

(١) انظر: كتاب شرح العلامة المحقق سعد الدين التفتازاني على العقائد النسفية - للإمام

نجم الدين عمر النسفي ص ١١٦ - ١٢٠ ط مطبعة محمد علي صبيح - الثانية.

(٢) تبصرة الأدلة في أصول الدين لأبي المعين النسفي ٤١٤/١ ط المعهد الفرنسي

بدمشق - الثانية، ت: كلود سلامة.

معاني وصور المحسوسات، ثم تنتقل إلى العقل يركب بعضها من بعض، ويحكم عليها ويرتبها، ويعطيها صورة منسقة يمكن تصورها والحكم عليها. وقد وضع القرآن الكريم المعرفة الحسية - النظر والسمع والكلام وبقية أدوات المعرفة الحسية - للاستدلال من خلالها، ومن خلال ملاحظتها على ما يلزم الاستدلال عليه، يستدل على الخالق، على المبدع، على أن هذا الكون لم يكن عبثاً، ولا الناس كانت عبثاً، ولا يصير الكون إلى غير هادف، إنما كل شيء بقدر وتقنين.

وإن كان بعض النقاد الغربيين يرون من الغوغائية التي يعيشها الناس، دلالة على صدفة المجيء، وفوضوية المصير، فهذا مرض التهم الغرب من عداوتهم للدين المتمثل في الكنيسة التي استغلت الدين للتربح، وفرض ضرائب الغفران.

أما ديننا فبين واضح، يحرك الفرد بذاته للمعرفة، قال تعالى (اقرأ) ولم يحركه لشيء آخر.

فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدى، وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة. إذا تحدث القرآن الكريم عن الأدوات الحسية، لتحصيل ما ينفع وما يفيد، وما يتقدم به الإنسان نحو الحق والخير، فمن لم ينتفع بعينيه، وسمعه، وشعوره، فكأنه لا بصر ولا سمع ولا حس له، إنما هو أدنى من أن يكون من أهل المعرفة الحسية، بل أدنى من ذلك!

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ ﴿١﴾ لأنهم تركوا الحق، تركوا استعمال هذه الأدوات التي بها يستدل على الحقل، أخبر الحق سبحانه عنهم أنهم لا يفقهون، لا يفهمون، مع أن لهم عقولاً لكن لا يستعملونها.

وأخبر أن لهم أعيناً لا يبصرون بها، لا يرون أدلة الهداية ودلالات الحق، وأخبر أن لهم آذاناً لا يسمعون بها الموعظة ولم يستعملوها، وهنا نفي لا للإدراك الحسي بها، ولكن لعدم الانتفاع بما أدرك، فحكم الله تعالى عليهم «أولئك كالأنعام» لأنهم لا يهتدون إلى صواب، فهم كالأنعام، لا هم لهم إلا الأكل والشرب واللذات، «بل هم أضل» لأن الأنعام تبصر منافعها وتأثيرها، وتترك مضارها وتتأى عنها، أما هؤلاء فيدركون ويبصرون ويسمعون، ومع ذلك فهم غافلون ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ﴾ (٢) حتى لا يسمعوا القرآن من النبي ق، تنزل عليهم الآيات والدلائل يرونها- رأي العين ومع ذلك لا يبصرونها.

لقد جاءهم بيان يبهر العقول، وجاءهم بحجج ساطعة، ومع ذلك لم يستعملوا ما وهبهم الله تعالى من أدوات المعرفة في تفهم وإدراك ما جاء. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ (٣) جزاء ما هم فيه من نكران لنعم الله تعالى (٤).

وقد أرشدهم الله تعالى لاستعمال حواسهم في إدراك الله تعالى لاستعمال

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٩.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٠.

(٤) انظر: القرطبي ١/٢٤٠-٢٤٦، ٤/٦٨٠-٦٨١.

حواسهم في إدراك الحقائق والاسترشاد بها، إنه استعمال للأدوات التي وهبت في معرفة الله تعالى.

تأمل وهو سبحانه يرشد إلى استعمال أدوات المعرفة للاستدلال على نفي الشريك - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فيقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِيَّاهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

من الذي جعلها قارة، ساكنة، ثابتة، تشعر أنها لا تميد ولا تتحرك بأهلها، لو كانت تتحرك لما استقرت عليها حياة، وإنما جعلها ثابتة قارة، لتقر عليها الحياة، جعلها مهذاً بسيطاً، وهو حال لا ينافي كرويتها، وجعل خلالها أنهاراً عذبة طيبة، وصرفها في الاتجاهات لتسقي الناس والزرع في كل مكان، وجعل للأرض رواسي شامخات لتثبت بكم، وجعل بين البحرين حاجزاً، قدرة بينة، بين المالح والعذب، حاجزاً يمنعهما من الاختلاط والامتزاج حتى لا يفسد هذا ذاك، حكمة بالغة، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾^(٢).

ومع ذلك يدعون أن مع الله إلهاً آخر، بعد ذلك كله، «أعله مع الله» يفعل أو يعبد من دونه، أو معه، أغيره يقرن به ويجعل له شريكاً^(٣).

وأجاب الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) نعم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾^(٥).

(١) سورة النمل، الآية ٦١.

(٢) سورة الفرقان، من الآية ٥٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٧٠. وتفسير الكشاف ٣/٤١٨-٤١٥.

(٤) سورة الروم، الآية ٦.

(٥) سورة الروم، الآية ٧.

ولهذا كانت دعوة القرآن إلى المعرفة الحسية والبحث بالحواس للوصول لحقيقة ما، لإرادة الحاصل يريد الحاصل من المعرفة، ولإرادة تقرير أم لأصحاب هذه الحواس، ولإرادة وصلهم بالآخرة، ولذلك عندما يأتون يوم القيامة يلومون أنفسهم أنهم تركوا استعمال أدواتهم في الحق، تركوا السمع والبصر والعقل، كأنهم كانوا في الدنيا صمًا بكما عميًا، أفسدت مداخل الصوت في السمع، وعدموا النطق، وذهب بصرهم، وليس الغرض نفي الإدراكات، وإنما الغرض نفيها من جهة ما، وهي الانتفاع بالمسموع والمرئي والمنطوق.

قال قتادة: صم عن استماع الحق، بكم عن التكلم به، عمي عن الإبصار له. وقال القرطبي: «وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي ق ولالة آخر الزمان في حديث جبريل - عليه السلام -: وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها»^(١).

لأنهم جحدوا بآيات الله - تعالى - لأنهم أنكروا بالظن والجهالة والعناد، لأنهم لم يبصروا بما بصروا، لم تتفعهم أبصارهم وأسماعهم ولا شيء مما أوتوه. ﴿... وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢).

(١) تفسير القرطبي ٢٣٧/١.

(٢) سورة الأحقاف، من الآية ٢٦. والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة ط ٣٧٧/٨ ح (٤٧٧٧)، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى «إن الله عنده علم الساعة». ورواه الإمام مسلم في صحيحه. انظر: شرح النووي ١٦٣/١-١٦٤ كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -

ولقد نبههم الحق سبحانه أن الذين يعبدونهم من دون الله عباد أمثالهم، لو طلبوا منهم النفع أو الضر ما قدروا عليه، وحاجهم ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١) ثم انتقل إلى وسائل المعرفة الحسية فقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَزْجُلْ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَمْ يَأْتِرْ بَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَغَيِّضْ بَصِيرُوتَ بِهَا أَمْ لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(٢) أي أنتم الذين تعبدون هذه الأصنام والأوثان، أنتم أفضل منهم، فكيف تعبدونهم؟ أنتم تمشون وتبطشون وتبصرون وتسمعون، فأنتم أفضل منهم، فكيف تعبدونهم؟ ومع ذلك لم يسمعوا الدعوة إلى الحق فقال: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٣) فقدوا الفائدة المبتغاة من السمع والبصر والعقل، فهم ليسوا كذلك. ولذلك يأتون هؤلاء الذين أهملوا هذه الأسباب، وأهملوا المعرفة، وأعموا أنفسهم عن الحق يأتون وهم يقولون يوم القيامة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤).

وكما كانوا في الدنيا عميًا وبكمًا وصمًا، يحشرون كذلك يوم القيامة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾^(٥).

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٩٤.

(٢) سورة الأعراف، من الآية ١١٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٩٨. وتفسير القرطبي ٤/٦٩٦-٦٩٨.

(٤) سورة الملك، من الآية ١٠.

(٥) سورة الإسراء، من الآية ٩٧.

يقول ابن كثير: قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير حدثنا إسماعيل^(١) عن نَفِيع قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يُحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»^(٢).

وهؤلاء يُحشرون على وجوههم عمياً لا يبصرون، وبكماً لا ينطقون، وصماً لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا، بكماً وعمياً وصماً عن الحق^(٣).

ويتضح مما سبق أن القرآن عدَّ المعرفة الحسية وسيلة للوصول إلى الله - تعالى - إلى معرفة آلائه ووجوده وعظمته، ولذا نجده - سبحانه - يدعو إلى التأمل دائماً، يقول تعالى شأنه: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا ... ﴾^(٤)، ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ ... ﴾^(٥)، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ... ﴾^(٦)، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾^(٧)، ﴿ وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ... ﴾^(٨).

(١) إسماعيل بن عمر.

(٢) مسند أحمد ٢٨٨/١٤ ح (١٦٤٧) مؤسسة الرسالة - ط الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م - ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون.

(٣) تفسير ابن كثير ٦٥/٣. وأخرجه الحاكم في المستدرک ٤٣٧/٢ ح (٣٥١٧) - كتاب الإيمان، باب: تفسير سورة الفرقان، ط دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ت: محمد عبد القادر عطا، وقال الذهبي: صحيح.

(٤) سورة يونس، الآية ١٠١.

(٥) سورة الغاشية، الآية ١٧.

(٦) سورة الروم، الآيات ٢٠-٢٥.

(٧) سورة البقرة، الآية ١٦٤.

(٨) سورة النحل، من الآية ٧٨.

المطلب الثاني: المعرفة العقلية:

اهتم القرآن الكريم بالمعرفة العقلية كما اهتم بالمعرفة الحسية - من قبل -، وذلك لأنهما معًا مصدر المعرفة الإنسانية، ولذا ضل أصحاب المذاهب المعاصرة لما انقسموا في المعرفة إلى قسمين، من يؤمن بالحس فقط، ومن ينكر الحس جملة، مؤمنًا بالعقل دون سواه.

دعوة القرآن لاستعمال الحس والعقل:

نادى بذلك في كثير من آياته فقال: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا...﴾^(١)، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ...﴾^(٢)، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ...﴾^(٣)، ﴿وَفِي السَّمَاءِ...﴾^(٤)، ﴿وَفِي الْأَرْضِ...﴾^(٥).

نداءات كثيرة، دعوة لإعمال الحس والعقل معًا، إذ يختم آيات التدبر بالتعقل والتفكر، والسؤال الاستكاري، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(٦).

ويلوم أهل النار - أعاذنا الله منها - يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٧) لأنهم عطلوا أسباب المعرفة، عطلوا حاكم الحس وحاكم العقل، فكانت النتيجة أنهم

(١) سورة يونس، الآية ١٠١.

(٢) سورة الغاشية، الآية ١٧-٢٠.

(٣) الذاريات، الآية ٢١.

(٤) الذاريات، الآية ٢١.

(٥) الذاريات، الآية ٢٠.

(٦) سورة غافر، من الآية ٦٢.

(٧) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

(كالأنعام) بل أضل؛ لأن الأنعام تستعمل حواسها، وأحياناً تتجاهل خبراتها ومخزوناتها الحسية.

ويلوم على أهل النار إغفال معطيات الحس واستنتاج العقل، ولما حاجهم - إبراهيم - عليه السلام - فقال: ﴿فَشَكَّلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(١) هنا رجعوا إلى أنفسهم، وكأنهم كانوا بعيدين عن أنفسهم بإغفال العقل والحس لأنهم يرون أن هذه الأحجار لا تسمع ولا تنطق.

فهل نبههم إبراهيم إلى جديد؟ أبداً، لكن كأنهم عادوا إلى أنفسهم وتفكروا، أنهم لا يسمعون، ولا يبصرون، ولا ينطقون، فكيف نعبدهم؟ لكن سرعان ما أغفلوا كل ذلك، وانكسروا وانقلبوا إلى جهالتهم، أو تجهيل أنفسهم، وأتموا الجدل والصراع.

إذا نجد القرآن الكريم قد اهتم بالمصدرين للمعرفة، وكثيراً ما يذكرهما معاً، فيقول: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ...﴾^(٢) فلم يذكر الحس فقط، بل العقل أيضاً.

المحسوسات وسيلة لاستنتاج العقولات:

أهمية المحسوسات للعقل تكمن في أن العقل لا يمكنه الحكم ولا استخراج نتيجة دون وجود صورة للشيء في الذهن، والصورة تحصل من المحسوسات.

ولهذا يتوقف حكم العقل وتحصيله للنتائج على المحسوسات، وعليه:

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٦٣.

(٢) سورة الملك، من الآية ١٠.

فالإدراك عامة هو حصول صورة الشيء في العقل، وهذا مذهب جميع الفلاسفة، وعلى انقسام الإدراك إلى حسي وعقلي يترتب الأمر إلى لزوم سبق الحسي للعقلي، لأن الإدراك الحسي قائم على معطيات الحس التي تتفعل عن المحسوسات، فيتم انتزاع صورة المحسوس. ويأتي دور العقل لانتزاع المعاني المجردة من حصيلة الإدراك الحسي^(١).

وكلاهما يكمل الآخر، فالمحسوسات دون تعقل تظل شتاتاً، والمعقولات لا تكون دون صورة محصلة من المحسوسات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (١٨) ؕ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٢).

فتحصيل المعرفة يبدأ بإعمال الحس في الموجودات، ثم بعد التفكير ينتهي الإنسان إلى حكم يطمئن إليه، إذ يصل إليه بالاستنتاج.

وهنا يوجه القرآن الكريم إلى التأمل في المحسوسات ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٣) هنا يقر الإنسان بالرؤية والمعرفة الحسية.

نعم يرون ما يحرقون، ثم ينتقل إلى سؤال آخر ﴿أَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أََمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٤) يفكر العقل عند حدود الفعل الإنساني في الزرع وهو بذر البذر، وري الماء، والله الفاعل الحق.

(١) الإدراك الحسي أ/ محمد فهمي مخطوط ص ٦٤ رسالة ماجستير بكلية أصول الدين بالقاهرة.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان ٦٨-٦٩.

(٣) سورة الواقعة، الآية ٦٣.

(٤) سورة الواقعة، الآية ٦٤.

ربما يصل إلى الحقيقة، لو تمسك بالفطرة ولم ينتكس؛ ولهذا كان إعمال العقل دعوة دينية.

منهج العقل وعمله :

يعمل الحس في المحسوسات، ويعمل العقل في المعقولات، فيكون منهج العقل فيما لا تحيطه الحواس، ولا يُحد في المحسوسات، فيأتي دور العقل في استخلاص الحقائق المجهولة من المعلومات الثابتة المتوفرة لديه.

ولذا يُعرفه السيد الشريف فيقول: «العقل ما يعقل به حقائق الأشياء... وهو جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة»^(١). فمنهج العقل إذاً هو تحصيل المجهول من المعلوم بالوسائط، سواء أكانت الأقيسة، أم الأدلة أيًا كانت.

وقد دعا القرآن إلى ذلك فقال: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾^(٢) دعوة للنظر سواء البصري أو النظر العقلي، والذي هو ملاحظة المعقول لتحليل المجهول، والمراد بالمعقول هنا المعلوم، والذي هو حصول صورة الشيء في العقل ثم يقيس ويدلل للوصول للحقيقة^(٣).

فبعد النظر والتأمل في هذا الكون من سماوات وأرضين، يتساءل العقل، من المبدع لكل ذلك؟ لا يمكن ذات ذلك، وإلا كان الفاعل والمفعول واحداً، ولا يمكن بعض ذلك، لأن ما فات المجموع يفوت المفرد، فلزم أن يكون

(١) التعريفات للشريف الجرجاني، ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) سورة يونس، من الآية ١٠١.

(٣) التذهيب شرح الخبيصي على تهذيب المنطق للفتازاني (التذهيب على التهذيب ص ٥٣، ٥٩ ط الحلبي).

الخالق المبدع ليس كمثلته شيء، ولا يكون كشيء، ولا يكون بعضاً أو كلاً مما خلق.

إذا وظيفة العقل وعمله فيما لا يحيط به الحس، أو أحاط به وخفي عن الإدراك الحسي، كالألوهية، والروح أيضاً عالم الغيب، يستدل عليه، ولا يحصل حسياً.

ويتأكد دور العقل هنا - بصفته معرفة حسية - بالمعرفة الألوهية «الوحي» الذي يهدي البشر إلى خفايا هذه الأمور بوسائل تصديق وتأكيد كالمعجزة ونحوه.

إذاً دعوة القرآن لعمل العقل مع الحس في أمور الدنيا والدين، وعمل العقل فيما لا يحيط به الحس.

المطلب الثالث: المعرفة الإنشائية:

وهي مما تحدّث عنه القرآن الكريم كنوع من أنواع المعارف، إلا أنها لا كسبية ولا تحصيلية، بل وهب بلا اقتدار، وعطاء بلا سبل ممكنة، أو طرق مقننة، فهي لمن اصطفاه الله واختاره، وسبحانه أعلم حيث يجعل رسالته. وهذه المعرفة هي الوحي.

وقد جاءت قضية الوحي في مواضع عدة، كان يتبرأ النبي - صلى الله عليه وسلم - من الحول والقوة أمام قومه فيقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ (١).

وعندما يقرر الحق سبحانه قضية الوحي يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

(١) سورة فصلت، من الآية ٦.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣.

وعندما يُرَأَى المرسل إليه من تهمة الهوى والادعاء يقول: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ
الْهَوَىٰ ۖ ۝٢ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١).

وقد قسّم القرآن الكريم الوحي في سورة الشورى فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ
لِإِنْسٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ
إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ (٢).

وقد عرّف العلماء الوحي فقالوا: هو الكلام خفية، ويشمل ما في معناه،
كالإشارة، والإيحاء، والإلقاء في النفس (٣).
وإجمالاً هو الإعلام في الخفاء وما في معناه.

والإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَيْطَانِينَ ۚ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (٤).
قال: يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس بالأمر الباطل وسمي
وحيًا لأنه إنما يكون خفية (٥).

(١) سورة النجم، الآيتان ٣-٤.

(٢) سورة الشورى، الآية ٥١.

(٣) انظر: مناهل العرفان للزرقاني ٦٣/١ ط الحلبي. والإتقان في آداب المعلم والمتعلم
أ. د. علي محمد نصر، ٤١ ط مطبعة الأمانة- الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م. ومنه
المنان في علوم القرآن أ. د. إبراهيم خليفة ١٤٦/٢، الطبعة الأولى
١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٤) سورة الأنعام، من الآية ١١٢.

(٥) تفسير القرطبي ٤/٤٤٨.

وينقسم الوحي إلى ما يلي:

١- الإلهام: وهو نفث ينفث في القلب. ومنه ما جاء في مسند الشافعي. قال: أخبرنا عبد العزيز ابن محمد عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن حنطب أن النبي ق قال: «ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، ولا تركت شيئاً مما نهاكم عنه إلا وقد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين قد نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فأجملوا في الطلب^(١)».

٢- من وراء حجاب: وذلك كما كلم الله - تعالى - موسى - عليه السلام -.

٣- إرسال جبريل - عليه السلام -: فيحمل جبريل - عليه السلام - - القدر المقدر من الوحي به، ويقول به بياناً للأنبياء لإ، وكذا كان جبريل مع النبي ق إذا نزل عليه بالوحي.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: نزل جبريل - عليه السلام - - على كل نبي، فلم يره إلا محمد وعيسى وموسى وزكريا لإ، وأما غيرهم فكان في المنام إلهام^(٢).

وما حدث مع أم موسى - عليه السلام - إلهام، وما ذاك إلا أنه وقع في نفسها واطمأنت إلى ما وقع ففعلت.

وأهمية هذه المعرفة، القصور العقلي، حيث لا يمكن الاستغناء به - في

(١) مسند الشافعي لمحمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي ٢٣٣/١ ح (١١٧١) ط دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) تفسير القرطبي ٥٠/٤ وما بعدها. وانظر: الإتيان للسيوطي ج ١ م ١٢٦/١ وما بعدهما، ط مكتبة دار التراث - القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م. والنكت والعيون للماوردي ٧٨/٤.

المعرفة الإلهية، والأمر والنهي - لذا لزم الوحي، وهناك من ينكره. وينكر أمر الرسول بجملته استغناءً بالعقل، وهذا وهم أو مكابرة. يقول الغزالي في كتابه «إلجام العوام»^(١).

إن العقلاء يعترفون بقصور العقل عن إدراك ما بعد الموت، ولا يمكنه الوصول إلى نفع الطاعة وضرر المعصية على وجه التفصيل، كل هذا لا يكون إلا بنور النبوة.

وعليه فالوحي معرفة يحتاجها البشر، ولا يمكن التوصل بأي وسيلة - سوى الوحي - إلى ما يصل بنا إليه الوحي من يقين ومعرفة واعتقاد.

وإلا فبربك قال لي: كيف كنا سنعرف الله - تعالى - وصفاته وفعله وأمره ونهيه دون وحي؟ وماذا سنستفيد من معرفة إله دون معرفة ما يجب علينا تجاهه؟ وبم يأمر وينهي؟ وماذا نفيد من اعتقادنا به؟

إن القضايا المعتمدة المبهمة ربما تجذب البعض، لكن ليس الكل وليس طوال الوقت، فكل دعاوى الألوهية التي سجلها التاريخ باءت بالانكسار، كعبادة البشر، والحيوانات، والحجارة، والأوهام، حتى الشيطان.

ثم لولا الوحي، لما أمكن للعقل تحديد قضية ما بعد الوحي، إنها لمن الأمور التي لا يصلح فيها التفلسف والتحليل والابتداع، حتى لو.. فالأمر حاصله تخيل لا تحقق، بخلاف الوحي الذي يحمل معه دلائل اليقين، كالمعجزة وبراهين الصدق.

ونخلص من ذلك إلى فائدة هذه المعرفة، وخصوصيتها على من خصهم

الله - تعالى - بها.

(١) إلجام العوام للغزالي ضمن مجموعة القصص العوالي ٩٣/٢ - ٩٤ ط مكتبة الجندي - الثانية بالقاهرة ٩٧٠ م.

• الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من أرسله ربه بالرحمات، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يُبعثون. وبعد:

١- فإن معين القرآن الكريم لن ينضب مع طول الأخذ والبحث، ولا زال فيه ما يوفي على قدرة الخلق إلى نهاية الخلق، حتى يأتي يوم القيامة كأنه البكر لم يمس.

٢- وقد تبين من خلال هذا البحث، أن القرآن الكريم قد وضع منهجاً وفيّاً وافياً، لا ينقصه فرع ولا تفصيله، وفيّاً بمقصوده ومقصود كل وارد، فلم يترك جانباً من المسألة إلا استوفاه.

٣- ولقد زاغ المفكرون المعاصرون، وبعض فلاسفة الإسلام حين مالوا عن المنهج القرآني في حل هذه المعضلة، فتراهم قد شطحوا وشطوا، فمن مال إلى فكرة التذكر، ومن مال إلى فكرة الوهب العلمي الإلهي لأصحاب الخلوات، ومن ركن كل الركون إلى العقل، وهكذا تفرقت بهم السبل.

٤- وقد فصلت في هذا البحث المعرفة في القرآن الكريم، والله أسأل أن أكون قد وفيت حقه، مع أن الموضوع متسع مترامي الأطراف، كما أوصي إخواني وزملائي بالتقريب في المعارف الدينية بما يواجه هذا العصر بتقدميته الجافة، وعلمانيته البعيدة عن جبلة الإنسان، والله المستعان، وهو حسبي في هذا المقام إن كان هناك خطأ أو نسيان، والحمد لله رب العالمين.

• ثبت المراجع والمصادر

- ١- الإتيان في أدب المعلم والمتعلم، د. علي محمد نصر، ط مطبعة الأمانة، الأولى، ١٤١١ هـ / ١٩٩٥ م.
- ٢- الإتيان في علوم القرآن، الإمام السيوطي، ط مكتبة دار التراث بالقاهرة، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- ٣- إجماع العوام للإمام الغزالي ضمن مجموعة القصور العوالي، ط مكتبة الجندي بالقاهرة، الثانية، ١٩٧٠ م.
- ٤- الإدراك الحسي، د. محمد فهمي، ماجستير بكلية أصول الدين بالقاهرة.
- ٥- أساس البلاغة، الإمام الزمخشري، ط دار الشعب بالقاهرة، ١٩٦٠ م.
- ٦- الأعلام لخير الدين الزركلي، الطبعة الثانية.
- ٧- البداية من الكفاية، الإمام الصابوني، ت: فتح الله خليف، ط دار المعارف، ١٩٦٩ م.
- ٨- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي، الناشر: دار ليبيا- بنغازي، ط المطبعة الخيرية بالجمالية- مصر، الأولى، ١٣٠٦ هـ.
- ٩- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، ت: عمر عبد السلام، ط دار الكتاب العربي- بيروت، الثالثة، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- ١٠- التاريخ الكبير، الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، ط. دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
- ١١- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ط دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

- ١٢- تبصرة الأدلة في أصول الدين، أبي المعين النسفي، ت: حملود سلامة، ط المعهد الفرنسي- دمشق، الثانية.
- ١٣- التعريفات، الشريف الجرجاني، ط الحلبي بالقاهرة، ١٩٣٨م.
- ١٤- تفسير القرآن العظيم، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٥٧٧هـ)، ط مكتبة دار التراث- الأولى.
- ١٥- تقريب التهذيب، ابن حجر، ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- ١٦- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ط مجلس دائرة المعارف النظامية- الهند، الأولى، ١٣٢٥هـ.
- ١٧- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، ت: بشار معروف، ط مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٨٥م.
- ١٨- التهذيب شرح الخبيصي على تهذيب المنطق للتفتازاني (التهذيب على التهذيب)، ط الحلبي.
- ١٩- الثقافة والمعرفة البشرية، د. ميشيل توماسيللو، ط عالم المعرفة، ٢٠٠٨م.
- ٢٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ)، ت: د. عبد الله عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب- السعودية، الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- ٢١- الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي (ت ٦٧١هـ)، ط دار القلم، الأولى.

- ٢٢- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ)، ط دار الفكر، الأولى، ١٣٧١ هـ.
- ٢٣- سير أعلام النبلاء، شيخ الإسلام الذهبي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط الثانية، مؤسسة الرسالة- بيروت.
- ٢٤- صحيح مسلم بشرح النووي، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٢ م.
- ٢٥- صفوة التفاسير، الإمام الصابوني، ط مكتبة الغزالي - دمشق - بيروت.
- ٢٦- طريق الفيلسوف، جان فال، نشر: مؤسسة سجل العرب، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، مراجعة: د. أبو العلا عفيفي.
- ٢٧- العقائد النسفية وشرحها، الإمام نجم الدين عمر النسفي، ط مطبعة محمد علي صبيح، الثانية.
- ٢٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ت: ابن باز وآخرين، ط المكتبة السلفية، الثالثة، ١٤٠٧ هـ.
- ٢٩- فكر هيجل، روجيه جارودي، ترجمة: إلياس مرقص، ط دار المعرفة- بيروت، الثانية.
- ٣٠- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم ابن الله الزمخشري، ضبط: يوسف الحمادي، ط مكتبة مصر، الأولى.
- ٣١- كلمات القرآن، تفسير وبيان للشيخ حسنين محمد مخلوف، طبعة دار ابن حزم- بيروت- لبنان، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
- ٣٢- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ط مؤسسة الرسالة- الثانية- بيروت، ١٤٩٠ هـ / ١٩٧١ م.
- ٣٣- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، ابن حبان، ط دار الوعي- حلب، ١٣٩٦ هـ.

- ٣٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ الهيثمي، ط دار الفكر - بيروت، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
- ٣٥- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م.
- ٣٦- مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، طبعة مؤسسة الرسالة، الثانية، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.
- ٣٧- مسند الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٣٨- المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية، أولف جيجن، ترجمة: د. عزت قرني، ط كلية الآداب - عين شمس.
- ٣٩- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الخطيب الرازي، ط المطبعة الخيرية - القاهرة، الأولى، ١٣٠٧ هـ.
- ٤٠- مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ عبد العظيم الزرقاني، ط الحلبي.
- ٤١- منة المنان في علوم القرآن، د. إبراهيم عبد الرحمن خليفة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- ٤٢- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، نشر دار الندوة العالمية، إشراف: د. مانع بن حماد الجهني.
- ٤٣- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الإمام شمس الدين الذهبي، ط دار المعرفة - بيروت - لبنان.
- ٤٤- النكت والعيون، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي (٣٦٤-٤٥٠ هـ / ٩٧٤-١٠٨٥ م).